مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 06 العدد 01
2026/02/28 (29)
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

Cultural Exchange between Mediterranean Countries Poetry as a Model

Fatima Rabbani
Chouaib Doukkali University, Faculty of Letters and Human Sciences,
El Jadida, Morocco
rabbani_fatima@yahoo.fr

Received:15/01/2026 Accepted : 21/02/2026

Abstract:

The subject of this article is the Sicilian-Andalusian-African acculturation and its impact on the development of Arabic poetry, as indicated by its title. It addresses the primary role that openness to the culture of the "Other" plays in reshaping knowledge. The human experience presupposes the existence of the "Self" in relation to the "Other," within the framework of possessing a deep awareness of one's own cultural identity, recognizing the specificity of the Other's identity, and activating cultural dialogue in a dimension completely removed from dependency or assimilation. Acculturation is based on concepts related to cultural and civilizational exchange, such as: parallelism, intertextuality, and opposition (mu'arada), within the framework of openness to the greatest possible amount of human knowledge, experiences, and expertise, and investing them in achieving a cognitive integration that constitutes a fundamental pillar for change. From here, we will research the cultural exchanges that brought together Sicily, Andalusia, and Africa in poetry specifically, then we will examine their impact on the development of Sicilian, Moroccan, and Andalusian poetry.

We proceed according to the following plan:

- Defining the circumstances of the emergence of Sicilian poetry and its most important sources and pioneers;
- Identifying the factors of acculturation between Sicily, Andalusia, and Africa;

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

- The impact of this acculturation on the development of Sicilian, Moroccan, and Andalusian poetry.

Before addressing these axes, we pose a set of questions that we will attempt to answer in the context of this article:

- How was the identity of Sicilian poetry formed? And what are its most important sources?
- What are the factors influencing the cultural exchange between Sicily, Andalusia, and Africa?
- How did cultural exchange between the three regions contribute to the development of Sicilian, Moroccan, and Andalusian Arabic poetry?

Keywords: Acculturation; Sicilian Poetry; Andalusian Poetry; Poetry in Africa (Morocco – Kairouan).

مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 06 العدد 01
2026/02/28 (29)
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

التبادل الثقافي بين دول البحر المتوسط

الشعر أنموذجا

فاطمة رباني
جامعة شعيب الدكالي كلية الأداب والعلوم الإنساني بالجديدة– المغرب
rabbani_fatima@yahoo.fr

ملخص:

موضوع هذه المقالة هو المثاقفة الصقلية الأندلسية الإفريقية وأثرها في تطور الشعر العربي، وكما يشي بذلك عنوانها؛ فهي تتعلق بالدور الرئيس الذي يؤديه الانفتاح على ثقافة الغير في إعادة تشكيل المعرفة، فالتجربة الإنسانية تفترض وجود الأنا بمقابل الآخر، في ظل امتلاك وعي عميق بالهوية الثقافية الذاتية، والاعتراف بخصوصية هوية الآخر، وتفعيل التحاور الثقافي في بعد تام عن التبعية أو الاستلاب. ويقوم التثاقف على مفاهيم تخص التبادل الثقافي والحضاري نحو: الموازنة والتناص والمعارضة، في إطار الانفتاح على أكبر قدر ممكن من المعارف والخبرات والتجارب الإنسانيّة، واستثمارها في تحقيق تكامل معرفي يشكل دعامة أساسية للتغيير. من هنا؛ سنبحث في المبادلات الثقافية التي جمعت صقلية والأندلس وإفريقية في الشعر تحديدا، ثم نقف على أثرها في تطور الشعر الصقلي والمغربي والأندلسي.

ونسير وفق الخطة الآتية :

* التعريف بظروف نشأة الشعر الصقلي وأهم مصادره ورواده؛
* تحديد عوامل المثاقفة بين صقلية والأندلس وإفريقية؛
* أثر هذه المثاقفة في تطور الشعر الصقلي والمغربي والأندلسي.

وقبل التطرق إلى هاته المحاور؛ نطرح مجموعة من الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في سياق هذه المقالة:

* كيف تشكلت هوية الشعر الصقلي؟ وما أهم مصادره؟
* ما العوامل المؤثرة في التبادل الثقافي بين صقلية والأندلس وإفريقية؟

مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 06 العدد 01
2026/02/28 (29)
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

* كيف ساهم التبادل الثقافي بين الأقطار الثلاثة في تطور الشعر العربي الصقلي والمغربي والأندلسي؟

الكلمات المفتاحية: المثاقفة، الشعر الصقلي، الشعر الأندلسي، الشعر في إفريقية (المغرب– القيروان).

مقدمة:

ورد مصطلح التبادل الثقافي في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية بمعنى "العملية التي تنتقل بها الثقافة خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات ذات ثقافات مختلفة" (زكي بدوي، 1982، ص 6). وأول من استعمله؛ العالم النفسي الفرنسي ج. و. بأول (J.W. Powell) وعرفه بكونه يجسد "التغيرات النفسية الناجمة عن المحاكاة عبر الثقافية" (جمال التلاوي، 2005، ص 7). والمثاقفة (Acculturation) اصطلاح أبدعته الأنثروبولوجية الأنجلوفونية للإشارة إلى تفاعل الثقافات، و"يشمل التثاقف الظواهر التي تنتج عن مجموعات من الأفراد ذوي الثقافات المختلفة الذين يكونون على اتصال مباشر مستمر، مما يؤدي إلى تغييرات كبيرة في الأنماط الثقافية"(Redfield, Linton, Herskovits 1936, p149) . تتم عند اكتساب ثقافة مغايرة للثقافة الأصلية للفرد أو الجماعة، بفعل الاندماج مع الآخر والانفتاح عليه في خضم تواصل الشعوب وحوار الحضارات، في مجالات عديدة منها اللغة، العلوم المهارات، الخبرات، الإبداعات، الفنون، العادات والقيم. ويقتضي رصدها؛ التعرف على العلاقات بين الثقافات المتعاصرة والمتلاحقة.

ولعل عوامل الفتح والهجرة؛ إضافة إلى عامل الترجمة في العصر العباسي بوصفها فعلا ثقافيا لا لسانيا، شكلت مفاتيح رئيسة لتعرف العرب على ثقافات جديدة والاستفادة منها، فقد شكَّل (بيت الحكمة) في بغداد مركز المثاقفة الأكبر في العالم الإسلامي، ومن نتائج هاته المثاقفة كتابا: (كليلة ودمنة) و(البيان والتبيين)، فالأول لابن المقفع؛ وقد تأثر فيه الأدب العربي بالسرد الحيواني، بينما الثاني للجاحظ؛ وتأثر فيه الأدب العربي بالفكر اليوناني، في حين؛ أثرت (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري في الأدب العالمي وكانت أحد مصادر إلهام الشاعر الإيطالي دانتي اليغييري(Dante Alighieri). من هنا؛ سنبحث في المبادلات الثقافية التي جمعت صقلية والأندلس وإفريقية في الشعر تحديدا، ونتعرف على العوامل المساهمة فيها وكذا النتائج المترتبة عنها.

أولا: عوامل التبادل الثقافي

مجلة الحكمة للدراسات والأبحاث المجلد 06 العدد 01
2026/02/28 (29)
ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

قبل الوقوف على العوامل المساهمة في المثاقفة بين دول البحر المتوسط؛ نرى أن نعرف أولا بظروف نشأة الشعر الصقلي تحديدا، لكونه نشأ متأخرا زمنيا مقارنة بالشعر في الأندلس وإفريقية، فصقلية لم تتعرف على الثقافة العربية بما فيها اللغة والشعر قبل القرن الثالث، بخلاف إفريقية والأندلس. وكان الشعراء في صقلية في أول الأمر أغلبهم أفارقة، إلا أن زمن حكم الدولة الكلبية لصقلية (363هـ- 444هـ) شكل فترة مناسبة لنشأة أجيال صقلية عربية. ولدت بالجزيرة وارتبطت بها وجدانيا بوصفها وطنا أما، فعاشت لأجلها وجاهدت في سبيل استقرارها، فاقترن لقب "الصقلي" و"السرقوسي" و"البلنوبي" بمجموعة من أسماء الشعراء، حتى ولو اضطروا لمغادرتها. وأقدمُ شعر صقلي وصلنا كان في أيام ولاية أبي القاسم الملقب بالشهيد، والذي عاش في الفترة الممتدة ما بين (359هـ) و (372هـ)، وهي الفترة نفسها التي تشكل الانطلاقة الحقيقية للشعر الصقلي، فقد بدأت الشخصية الصقلية في الظهور منذ (359هـ) ،إذ برز فيها ثلاثة شعراء هم: سهل بن مروان، وعلي بن الحسن بن أبي سعيد القاضي، وأبو إسحاق إبراهيم بن مالك المعافري القاضي. في حين عرف الشعر الصقلي انتعاشا ملحوظا وازداد النبوغ الشعري في عهد الأمير ثقة الدولة، إذ بزغ نجم مجموعة من الشعراء الصقليين؛ على رأسهم مُحَمَّد بن أحمد أبو عبد الله الصقلي، وابن الطوبي والقرقودي والمشرف بن راشد. أما في الفترة المتراوحة بين (390هـ) و (460 هـ)، فقد حفلت صقلية بمجموعة كبيرة من الشعراء منهم: ابن الخياط وابن مكي والوداني وابن الصباغ وثلاثة من أبناء الطوبي ومثلهم من بني الشامي وشاعران من أبناء الرقباني، وأبو العرب الصقلي وابن حمديس الصقلي وغيرهم.. وأغلبهم ورد ذكره في الدرة الخطيرة لابن القطاع. ومن ثم؛ شكلت نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين الفترة الذهبية لانتعاش الشعر العربي الصقلي، وقد أدت المثاقفة مع القيروان والأندلس دورا رئيسا في ذلك بفعل عوامل متعددة، نذكر منها:

1.1. الفتح الإسلامي

لعل أهم عامل جَمَعَ بين الأقطار الثلاثة هو انضمامها إلى الدولة الإسلامية، فإفريقية تم فتح معظم بلادها عام (62-63هـ) على يد عقبة بن نافع الفهري، والأندلس فتحت عام (92هـ) على يد القائد طارق بن زياد، في حين تم فتح صقلية عام (212هـ) على يد الفقيه المجاهد أسد بن الفرات قاضي القيروان. ليحكم المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط. وكعادة الفاتحين في كل زمان ومكان؛ فقد كانوا

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

خير رسل للحضارة الإسلامية والثقافة العربية، التي انتقلت مع الفاتحين إلى البلاد المفتوحة كلها، وتم التقاء الشعوب المختلفة للأقطار الثلاثة إضافة إلى المشارقة، وتلاقحت الثقافات المختلفة على أراضيها، وتبادلوا العادات واللغات والخبرات والفنون والآداب، بما في ذلك الشعر.

1.2. الموقع الجغرافي

تتميز الأقطار الثلاثة بموقع بحري استراتيجي في قلب البحر الأبيض المتوسط، فصقلية والأندلس حلقتا وصل بين إفريقية وأوربا، والمغرب والقيروان بوابتا إفريقية إلى أوربا في الوقت نفسه، وقد ظلت صقلية إمارة تابعة للدولة الفاطمية بعد فتحها، ما جعل المنطقة تشكل مركز التقاء حضارات البحر المتوسط وتثاقفها، وتجسد تجربة تاريخية مهمة لموقع جغرافي استراتيجي، تم فيه التأثير والتأثر المتبادل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب، وتعايشت فيه شعوب المتوسط ثقافيا وحضاريا.

1.3. النهضة الأدبية

شكَّل الاستقلال السياسي النسبي لصقلية عاملا أساسا في نشأة نهضة أدبية في(بلرم)، وشهدت إفريقية بدورها استقرارا سياسيا عهد المعز ابن باديس، أدى دورا رئيسا في نشأة نهضة أدبية في (القيروان) التي صارت مركزا للنسْخ والتأليف، وأضحت الكتب القيروانية سلعة مطلوبة في صقلية، وساهم تعاصر النهضتين الأدبيتين؛ الصقلية والقيروانية في حدوث المثاقفة بين القطرين، إضافة إلى الأندلس التي حازت قصب السبق في العلوم والفنون. فامتلأت قصور الأمراء في الأقطار الثلاثة بالشعراء، ما سَهَّلَ حركيتهم بينها وجعلنا نسمع الأشعار القيروانية في صقلية، ونسمع الأشعار الصقلية في الأندلس وإفريقية أيضا.

1.4. عناية الأمراء بالشعراء

وهي عادة جميع الأمراء؛ فقد كانوا يستجلبون الشعراء من أقطار أخرى، ليشيعوا فضائلهم بين شعوبهم، وتَجري أخبارهم على لسان الحفاظ والرواة، أو ليستأنسوا بمجالسهم ومطارحاتهم الشعرية إن كانوا أصحاب ذائقة أو نظم، وهذا ما عاشه بلاط المعتمد بن عباد (الأمير الشاعر) في الأندلس، وبلاط المعز بن باديس بالقيروان، وقصور الأغالبة والكلبيين (أغلبهم شعراء) بصقلية، وقصور المرابطين ثم الموحدين في المغرب، فقد عجت جميعها بالشعراء، وكانت قِبلة لهم.

1.5. الهجرة بين صقلية والأندلس وإفريقية

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

انتعشت حركية الشعراء بين صقلية والأندلس وإفريقية، فقد شكلت هذه الأقطار مُثَلَّثًا يجسد هجرة الشعراء من قطر إلى آخر، وقد اختلفت دوافعها وتنوعت بين سياسية واقتصادية وأدبية، فمن الدوافع السياسية لهجرة الشعراء؛ خراب القيروان على يد عرب بني هلال، إذ تم "هدم الحصون والقصور وقطعوا الثمار وخربوا الأنهار" (ابن الأثير، 1987، صفحة 297)، ونهبت سنة (449هـ)، ما جعل أغلب الشعراء ينتقلون إلى صقلية والأندلس، كما ساهم غزو النورمان لصقلية منذ سنة (454هـ) في هجرة الشعراء الصقلين والأفارقة الذين استوطنوها سابقا، فكانت كل من الأندلس ومصر وجهة لهم، ومنهم ابن حمديس الصقلي، الذي اختار المجد الأدبي في بلاط المعتمد بالأندلس، إلا أن سقوط نحو نصف مدن الأندلس بعد موقعة الزلاقة سنة (479هـ)، وما واكبه من صراعات داخلية، ونفي المعتمد بن عباد إلى المغرب سنة (484هـ)، كانت كلها عناصر رئيسة في اضطراب الحركة الأدبية وشتات الشعراء الذين كانوا في بلاط المعتمد، أوينعمون بصحبته ومجالسته، ما جعلهم يتجهون غالبا إلى إفريقية، "وهكذا قام كل بلد من هذا المثلث المغربي بنصيبه في الحياة الأدبية، وكانت الهجرة من واحد إلى آخر غذاء جديدا" (إحسان عباس، 1975، صفحة 169).

ولم يكن الشعراء المهاجرون سواء؛ فقد اختلفوا بين عابر متكسب، ولاجئ مستقر، وعاشق تعلق فؤاده بجوهرة المتوسط(صقلية)، وطامح إلى المجد الأدبي بالأندلس، ومن كل هؤلاء؛ وفد على صقلية جمع من إفريقية بعد مجاعة (395هـ)، أو بعد خراب القيروان المذكور آنفا، أو مفتتنين بجمالها، أو في رحلات علمية أو ثقافية، منهم من وفد من القيروان، وعلى رأسهم: ابن رشيق القيرواني، والحُصري وابن شرف وابن قاضي ميلة وابن المؤدِّب وابن الحُلواني وابن الزنجي وعبد الحليم بن عبد الواحد السوسي. أما حين غزاها النورمان فقد كان "من جلَّة من انتقل عنها عند الحادثة؛ الشرفاء المستقر بعضهم بمدينة فاس، وقد غُير انتسابهم إلى صقلية بالقلب، فيدعون اليوم الصياقلة.. ومن الفقهاء والقضاة والمحدثين..ومن الكتاب والبلغاء والشعراء المفلقين مثل ابن حمديس الصقلي، قدم على المعتمد بن عباد" (ابن الخطيب، 2003، ص ص 349- 350). واستقر بالأندلس حتى نُفي المعتمد منها، والشاعر البلنوبي، وابن الطوبي وابن المعلم وابن مكي و المقداد بن الحسن الكلبي وأخوه ميمون وأبو علي الحسن بن علي الصقلي النحوي.

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

أما الأندلس فقد كانت قبلة للشعراء؛ حيث انتقل إليها من العراق: أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي، والوزير أبو الفضل مُحَمَّد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، والأديب أبو الحسن البغدادي المعروف بالفكيك. ومن المغرب: ابن القابلة السبتي، أبو زكرياء يحي بن الزيتوني من فاس وعبد العزيز بن مُحَمَّد السوسي. ومن الجزائر: الأديب أبو بكر بن العطار اليابسي. ومن المشرق: أبو الفتوح ثابت بن مُحَمَّد الجرجاني وأبو مُحَمَّد المصري. ومن صقلية: أبو العرب الصقلي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن الصباغ الصقلي، سليمان بن مُحَمَّد الصقلي و ابن حمديس. ومن القيروان: ابن شرف، الحصري، أبو مُحَمَّد المهدوي وابن الطلاء. أما بعد نفي المعتمد بن عباد إلى المغرب؛ فقد رحل إليه ابن حمديس الصقلي، ابن اللبانة الداني، ابن حماد الصقلي، ابن العجمي الصقلي، ابن شرف، الحُصري وابن بقي.

1.6. المدرسة النقدية القيروانية

ذكرنا سابقا أن ابن رشيق القيرواني هاجر إلى صقلية، فقد استقر بمازر إلى أن وافته المنية سنة (456هـ)، ودرّس كتابه "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، وقد تناول فيه مواضيع وقضايا مهمة منها ما يخص أصول صناعة الشعر وقواعدها، نحو: حد الشعر، أدواته، شروط صناعته، أغراضه، النظم، المعاني والألفاظ، الأوزان والقوافي والطبع والصنعة. ومنها ما يخص محاسن الشعر ونقده، نحو: محاسن الكلام ومحاسن اللفظ، المعاني البديعية، طبقات الشعراء، السرقات الشعرية، نقد الشعر وعيوبه، تحسين الشعر وإصلاحه. وضَمَّنَهُ آراءه النقدية؛ نحو قوله: "وإنما فُضِّل امرؤ القيس —وهومن هو– لما صَنَعَ بطَبْعِه وعلى سَجِيَّته من غير طمع ولا جزع" (ابن رشيق القيرواني ، 2000، ص 45).

ومع أن مدة استقراره في صقلية لم تتجاوز سبع سنوات؛ إلا أن تأثيره في الصقليين كان كبيرا، فالعمدة يعدُّ أروع ما كتبت المغرب والأندلس في النقد الأدبي والبلاغة، وقد حاز اهتمام العلماء؛ إذ اختصره أبو عمرو عثمان بن علي الأنصاري الخزرجي الصقلي النحوي، واختار له عنوانا (العدة في اختصار العمدة) واختصره أبو بكر بن السراج النحوي أيضا. (بروكلمان، صفحة 344). كما أدرج ابن مكي عدة استشهادات منه في كتابه "تثقيف اللسان"، نحو قوله "هكذا قال لي أبو علي حسن بن رشيق القيرواني رحمه الله تعالى".(ابن مكي، 1990، صفحة 39). والأشعار أيضا؛ ومنها قول ابن رشيق(البسيط)

أُحِبُّ المدينَةَ في اسْمٍ لا يُشارِكُها فيهِ سِـــواها مِنَ البُلْدانِ وَالْتَمِـسِ
وَعَظَّمَ اللهُ مَعْنى لَقْطِها قَسَماً قَلِّدْ- إذا شِئْتَ- أَهْلَ العِلْمِ أَوْ فَقِسِ

وله كتابان آخران مهمان هما:(أنموذج الزمان في شعراء القيروان) ونعده سجل الشعراء القيروانيين، إذ جمع فيه المؤلف تسعة وتسعين من الشعراء المعاصرين له، أكثرهم عجَّ بهم بلاط المعز بن باديس الصنهاجي، وأتمت ترجمته المائة. وأورد فيه تراجم مختصرة لهم، وذكر بعضا من أشعارهم، ولم يكن في عمله مُقِلا ولا مكثرا، وقد اعتمد في ذلك على الحفظ والمشافهة والمراسلة، وأضاف آراءه النقدية. أما الكتاب الثالث؛ فهو(قراضة الذهب في نقد أشعار العرب) وقد خصصه ابن رشيق لدراسة مقومات الشعر العربي القديم البلاغية والإيقاعية والتركيبية، انطلاقا من نماذج مختارة، وضمنه آراءه في مجموعة من القضايا منها: المعارضة والمبالغة والسرقات، نحو قوله "وما كثر هذه الكثرة وتصرف الناس فيه هذا التصرف لم يُسَمَّ آخذه سارقا". (ابن رشيق، 1972، صفحة 19). وبذلك؛ نخلص إلى أنه صاحب منهج نقدي متكامل في صناعة الشعر، ضَمَّنَه كتبه (العمدة) و(الأنموذج) و(قراضة الذهب) ناهيك عن كونه شاعرا، إذ يجمع بين النظرية والممارسة (النقد والشعر)، ما يجعل اختياراته وآراءه ذات قيمة فضلى.

1.7. وصول الكتب والدواوين الشعرية إلى صقلية

فمن الدواوين؛ وصل ديوان ابن الرمة، وديوان المتنبي، وديوان أبي تمام، وديوان ابن الرومي. أما من الكتب؛ فوصلت كتب الحُصري، اليتيمة للثعالبي، البيان والتبيين للجاحظ، أدب الكاتب لابن قتيبة وكتب ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، وقراضة الذهب في نقد أشعار العرب والعمدة في صناعة الشعر ونقده، والذي تدارسوه في حياته وبعد مماته. وقد ساعد على ذلك؛ كثرة المدارس العلمية وكثرة المكتبات ووفرة المعلمين وشغف الشباب بقراءة الكتب وحضور المجالس العلمية وارتياد المكتبات.

ثانيا: آثار المثاقفة الصقلية الأندلسية الإفريقية

تَرَتَّبَ عن هذه المثاقفة الأدبية؛ تحول صقلية إلى مركز أدبي ثقافي رئيس خلفا للقيروان، بعد انتقال الشعراء إليها، فقد انتقل معظم العلماء والشعراء القيروانيين إلى صقلية، ما أدى إلى وفرة في الإنتاج الأدبي فيها، فالوافدون كما أشرنا سابقا؛ من أهم الشعراء في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ولنا أن

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

نتخيل البيئة التي ستتوفر للشعراء الصقليين بقدوم القيروانيين، فقد أقبلوا على النظم والمطارحات والمعارضات والإخوانيات والإجازات، ومنها:

قول أبي الحسن علي بن المعلم صاحب ديوان الصناعة، سأله بعض إخوانه أن يجيز:

* وَماءٍ كَعَيْنِ الدّيكِ يَجْري عَلى الحَصى*

فقال: * إذا ما نَهَتْهُ الرّيحُ عَنْ جَرْيِهِ عَصى * (الطويل) (ابن القطاع، 1995، صفحة 145).

ومن الإخوانيات؛ مقطوعة للبلنوبي في ستة أبيات (البلنوبي ، 1976، صفحة 7)، أجاب فيها أبا سليمان بن هبة الله الكاتب، وكان قد عاتبه، يقول في بدايتها:

وَعَيْشِكَ مَعَ عِلْمي بِأَنَّكَ تَمْزَحُ لَقَدْ نالَني مِنْ ذاكَ وَجْدٌ مُبَرِّحُ

وَوَاللهِ ما فارَقْتُ أَمْرَكَ ساعَـةً وَما لي عَمّا تَرْتَضِى مُتَزَحْـــزَحُ

وَإِنّي عَلى قُرْبِ المزارِ وَبُعْدِهِ حَلِيفُ اشْتِياقٍ لَيْسَ يَنْأى فَيَبْرَحُ(الطويل)

ولأن انتقال الشعراء هذا؛ ليس مقصورا على الجغرافيا، بل توسع ليشمل المكونات العلمية والثقافية للمهاجرين، فإن تأثير القيروانيين كان كبيرا في الصقليين، إذ تجاوز أثر الترجمة؛ فالمهاجر عادة سفير للعلوم والثقافة والمهارات والخبرات، يحملها إلى البلد المستقبل، فماذا لو كان السفراء أعمدة الشعر والنقد القيرواني؟ لقد كان من أثرهم تطور الذوق الأدبي وفق الحلقات العلمية التي كان يعقدها ابن رشيق القيرواني، والذي كان محط نظر الصقليين، فقد درس العمدة والأنموذج في حلقات عامرة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وكان بينه وبين ابن شرف منافسة أدبية ومناقشات نقدية وسجالات شعرية؛ وثالثهم الحصري، ما أفضى إلى إثراء الحياة الأدبية الصقلية، فَرَقَتْ بالذوق الأدبي للصقليين من حيث التلقي والإنتاج. وانتقلت الجزالة القيروانية بانتقالهم، واستمرت تقاليد القيروان بتواصل نشاط القيروانيين خارج حدودها وبعدخرابها. ونتج عن ذلك خصوبة في الملكات وسلاسة في نظم الشعراء الصقليين.

أما الأندلسيون؛ فقد اشتهروا بمجالس الطرب والشرب والرقص، وهي مظهر من مظاهر حياة الترف واللهو التي اشتهرت بها الأندلس، وأخذها عنهم الصقليون؛ فأكثروا من وصفها والوقوف عند مكوناتها، من خمر وأوانيها، وسقاة وجَوار، ومغنين ومغنيات، ولهو ومجون أحيانا. ومن ذلك قول ابن الطوبي(أبي عبد الله مُحَمَّد بن الحسن) في استدعاء أخ له إلى مجلس أنس: (ابن القطاع، 1995، صفحة 181).

ISSN print/ 2769-1926 ISSN online/ 2769-1934

قَدْ شَرِبْنا المدامَ مِنْ كَفِّ خودٍ أَقْبَلَتْ كَالهِلالِ وَاللَّيْلُ داجِ
وَنَعِمْـــــنا -لَوْلا مَغيبُكَ عَنّا - بِسَمـــاعِ الأَزْمالِ وَالأَهْزاجِ
وَعَجِبْنا لِلْماءِ يَحْمِـــــلُ ناراً في قِنانٍ كَأَنَّها خَـــرْطُ عاجِ
وَفَتاةٍ تَكَشَّفَتْ لِلنَّدامـــــى وَعَجـــوزٍ تَسَتَّرَتْ بِالزُّجاجِ
فَاغْتَنِمْ لَذَّةَ الزَّمـــانِ وَبادِرْ كُلُّ ضيقٍ تَخـــافُهُ لِانْفِراجِ (الخفيف)

ومن ناحية أخرى انتقل إلى الأندلس الوجدان الحزين من القيروان وصقلية، وبلغ مداه في رثاء الأندلس أو (الفردوس المفقود) كما اشتهر، وسنقف عنده لاحقا.

أما المشرق؛ فكانت له يد في هاته المثاقفة ولو بشكل غير مباشر، إذ هو الأصل؛ ويتجلى أثره في اهتمام الشعراء بالمحسنات البديعية، وقد سبق أثر المشرق إلى القيروان والأندلس، فابن رشيق خصص جزءا مهما من كتابه العمدة للبلاغة، وجعل من أبوابه: باب المجاز، الاستعارة، التمثيل، المطابقة والمقابلة.

إلا أنه في خضم المثاقفة هاته؛ لا بد من الإشارة إلى بعض الخصوصيات من قبيل انضباط الشعر الصقلي والمغربي في مستوى الإيقاع للأوزان الخليلية، إذ لم يخرج عنها الصقليون ولا المغاربة ولم يجددوا فيها كما فعل إخوانهم الأندلسيون في الموشحات والزجل، ومن ثَم؛ نلاحظ عذوبة شعرهم وسلاسته، ناهيك عن تميز المغاربة في شعر التصوف والمدح النبوي، وعدم تأثرهم بالتيار الغلماني القيرواني أو الأندلسي.

ولعل من نافلة القول؛ الإشارة إلى أن تأثر الشعر الصقلي بالرثاء القيرواني، رافقه انتقال الوجدان الحزين إلى صقلية ومنها إلى الأندلس، فالأقطار الثلاثة؛ توالت عليها النوائب والفتن، ما جعل الشعراء يصدحون بأصواتهم الحزينة راثين أوطانهم، مستنصرين الأمراء لتخليصها من أيدي الغزاة،حاثين أبناءها على الدفاع عنها وعدم الاستسلام للمحتلين، ما حوَّل الشعر إلى ذاكرة لأهم المحطات التاريخية لهذه الأقطار، فالقارئ لشعر روادها يجد نفسه أمام تاريخ انتصاراتها وانهزاماتها، ولحظات قوتها وضعفها، ويجد قصائدهم توثق سقوط المدن والحصون وزوال الحضارات. ومنه قول ابن رشيق: (ابن رشيق، 1989، ص 206).

كانَتْ تُعَدُّ القَيْرَوَانُ بِهِمْ إذا عُدَّ المَنابِرُ زَهْـــرَةَ البُلْدانِ
وَزَهَتْ على مِصْرٍ وَحُقَّ لَها كَما تَزْهُو بِهِمْ وَغَدتْ على بَغْدانِ
حَسُنَتْ فَلما أَنْ تَكامَلَ حُسْنُها وَسَما إِلَيْها كُلُّ طَـــرْفٍ رانِ

وَتَجَمَّعَتْ فيها الفَضائلُ كُلُّها وَغَدَتْ مَحَلَّ الأَمْنِ الإيمانِ
نَظَرَتْ لها الأَيَّامُ نَظْرَةَ كاشِحٍ تَرْنُو بِنَظْرَةِ كاشِحٍ مِعْيانِ (الكامل)

وانتقل معهم إلى صقلية، فاشتد عوده على يد الشعراء المتفجعين على سقوط مدن صقلية وحصونها وقلاعها تباعا في يد النورمان، ومنه قول ابن حمديس الصقلي:

ذَكَّرْتُ صِقِلِّيَّةً والأَســـــــــى يُهَيِّجُ لِلنَّفـــــسِ تِذكَارَها(المتقارب)
وَمَنزِلَةً للتَّصابـــــي خَلَـــتْ وَكَانَ بَنُـو الظَّرْفِ عُمَّارَها
فَإِن كُنتُ أُخرِجتُ مِن جَـــــنَّةٍ فَإِنِّيَ أُحَـــــدِّثُ أَخبَارَها
وَلَولا مُلوحَـــــةُ ماءِ البُـــــكا حَسِبْتُ دُمـــــوعِيَ أَنهَارَها
ضَحِكتُ ابنَ عِشرينَ مِن صَبوَةٍ بَكيتُ ابنَ ستِّينَ أَوزارها. (ابن حمديس الصقلي، ص183).

ليبلغ مداه في رثاء الأندلس؛ فردوس الأندلسيين المفقود. ومنه قول أبي البقاء الرندي (البسيط):

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَـــــمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَـــــدْتُهَا دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَـــانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَـــــدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَـــانُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِن يَمَنٍ وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَـــانُ؟
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِـــنْ ذَهَبٍ وَأَيْنَ عَادٌ وَشَدَّادٌ وَقَحْـــطَانُ؟
أَتَى عَلَـــــــى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا (أحمد المقري، 1968، ص 487).

ومن مظاهر التبادل الثقافي بين الأقطار الثلاثة وتجلياته في الشعر؛ عودة الرحلة وظاهرة الاغتراب إلى بنية القصيدة العربية، فالشعراء انتقلوا من مواطنهم؛ واستقروا ببلدان جديدة، إما استوطنوها إلى أن ارتقوا نحو ابن رشيق القيرواني بصقلية، وإما اعتبروها مراكز أدبية لتحقيق مجدهم الأدبي مثلما استقر ابن حمديس بالأندلس، وظلت عينه على صقلية، يتشوق للقائها ويتخوف من ركوب البحر بعد غرق جاريته (جوهرة) فيه. والملاحظ أن الشعراء صاروا ينتقلون بين المراكز الأدبية الجديدة بدءا من صقلية مرورا بالأندلس ثم إفريقية، يساجلون ويمدحون ويطارحون ويشاركون في المجالس الأدبية التي عجت بها قصور

الأقطار المستقبِلة ومجالسها العلمية، ما أكسب هجراتهم الأدبية قيمة ثقافية وحضارية، انطلاقا من تبادلهم الثقافي وانفتاحهم على الموروث الحضاري لبعضهم البعض. ومن شعر ابن رشيق في الرحلة قوله:

غِبْ عَنْ بِلادِكَ وَارْجُ حُسْنَ مَغَبَّةٍ إِنْ كُنْتَ حَقاً تَشْتَكي الإِقْلالا
فَالْبَـــــدْرُ لَمْ يُجْحِفْ بِهِ إِدْبارُهُ أَنْ لا يُســافِرَ يَطْلُبُ الإِقبالا (ابن رشيق، 1989، صفحة 134).

ومن شعر ابن حمديس في الاغتراب:

بِحُكْمِ زَمانٍ يا لَهُ كَيْفَ يَحْكُمُ يُحَـــــــــرِّمُ أَوْطاناً عَلَيْنا فَتَحْرُمُ
لَقَدْ أَرْكَبَتْني غُرْبَةُ البَيْنِ غُرْبَةً إلى اليَوْمِ عَنْ رَسْمِ الحِمى بيَ تَرسُمُ
إذا كُلَّ عَني مِنْ سَنا الصُّبْحِ أَشْهَبٌ تَناوَلَ حَمْـــلي مِنْ دُجَى اللَّيْلِ أَدْهَمُ
(ابن حمديس، صفحة 408).

ويمكن تمثيل هاته المثاقفة بين الأقطار الثلاثة وأثرها في تطور الشعر في المسارات الآتية:

*المسار1: القيروان ←صقلية: يجسد استفادة الشعر الصقلي من المدرسة النقدية (البلاغة والنقد) والجزالة والوجدان الحزين للقيروانيين- ظهور (الصقليات).

*المسار2: الأندلس ←صقلية: يمثل ظهور تيارات جديدة (الطربيات والخمريات والروضيات).

*المسار3:صقلية ←الأندلس: يجسد انتقال الوجدان الحزين – ظهور رثاء المدن.

*المسار4: الأندلس ←المغرب: يشكل انتقال الموشحات والزجل والغنائية.

هذه المسارات تعكس حياة الشعر في الأقطار الثلاثة، وتجسد المثاقفة بينها، كما تشهد على خصوصية كل قطر على حدة؛ فالمثاقفة ليست استلابا بقدر ما هي انفتاح وتبادل في الفنون والعلوم والخبرات مع الحفاظ على الهوية الثقافية.

خاتمة:

وبناء على ما سبق؛ فالتحولات السياسية والثقافية والاجتماعية التي عرفتها القيروان والأندلس وصقلية؛ كانت عاملا مباشرا ساهم في مبادلات ثقافية كان لها أثر كبير في ازدهار الشعر الصقلي والأندلسي والمغربي، وترتب عنها تطور الملكات والذوق تلقيا وإنتاجا، ووفرة في النظم والمطارحات

والمعارضات والإخوانيات والإجازات، وظهور تيارات جديدة (الصقليات)، وتوسع في الأغراض القديمة (رثاء المدن)، وعودة (الرحلة) وظاهرة (الاغتراب) إلى بنية القصيدة العربية، إضافة إلى تحول النص الشعري إلى وثيقة ثقافية تاريخية توثق سقوط المدن وزوال الحضارات، وتسجل الانكسارات والانتصارات، ما يوضح بجلاء قدرة الشعر على تجاوز الحدود السياسية بفعل المثاقفة والتبادل الحضاري. هذه النتائج تحققت في ظل امتلاك كل من الأندلس وصقلية والمغرب وعيا عميقا بالهوية الثقافية الذاتية، واعترافها بخصوصية الآخر في بعد تام عن التبعية أو الاستلاب.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير. (1987). *الكامل في التاريخ* (الإصدار 1 ، مجلد 8). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
2. ابن القطاع. (1995). الدرة الخطيرة في شعراء أهل الجزيرة، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
3. ابن حمديس الصقلي. (بلا تاريخ). *ديوان ابن حمديس*. بيروت، لبنان: دار صادر.
4. ابن رشيق القيرواني. (1989). *ديوان ابن رشيق القيرواني*. بيروت، لبنان: دار الثقافة.
5. ابن رشيق القيرواني. (2000). *العمدة في صناعة الشعر ونقده* (الإصدار 1). القاهرة ، مصر: مكتبة الخانجي .
6. أبو حفص عمر بن خلف ابن مكي. (1990). *تثقيف اللسان وتلقيح الجنان*(الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
7. إحسان عباس. (1975). *العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب* (الإصدار 2). بيروت، دار الثقافة، لبنان.
8. أحمد بن مُحَمَّد التلمساني المقري. (1968). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (المجلد 4). بيروت، دار صادر، لبنان.
9. ابن رشيق القيرواني. (1972). *قراضة الذهب في نقد أشعار العرب:* الشركة التونسية للتوزيع. تونس.
10. جمال نجيب التلاوي. (2005). *المثاقفة عبد الصبور وإليوت..دراسة عبر حضارية* (الإصدار 1): دار الهدى للنشر والتوزيع.
11. زكي بدوي. (1982). *معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية* . بيروت، مكتبة لبنان. لبنان.
12. علي بن عبد الرحمان البلنوبي . (1976). *ديوان البانوبي*. بغداد، دار الرسالة للطباعة، العراق.
13. كارل بروكلمان. (بلا تاريخ). *تاريخ الأدب العربي* (الإصدار 3، المجلد 5). القاهرة، دار المعارف مصر.
14. لسان الدين ابن الخطيب. (2003). *أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام*. (الإصدار 1، المجلد 2). بيروت، دار الكتب العلمية، لبنان.
15. Redfield, Linton, Herskovits (1936), Memorandum on the study of acculturation, American Anthropologist.\